من تراثنا العلمي

٣ - كتاب في البيزرة

وصف وتحليل لنسخة فريدة من كتاب مفقود، في علم ضائع، للمؤلف مجهول

للأستاذ علي الطنطاوي

تتمة

وللصيد لذة مشتركة موجودة في طباع الأمم، وكأنها في سكان البدو والأطراف أقوى لمصاقبتهم الوحش ومنازلتهم إياها؛ فلا تزال تراهم لها ذاكرين وبها متمثلين، ومنها طاعمين، حتى أن نساءهم ليتصيدن على الخيل؛ ذكر ذلك بعض الرواة فقال: أتيت مكة فجلست في حلقة فيها عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي وإذا هم يتذاكرون المغربين وعشقهم وصبابتهم، فقال عمر: أحدثكم بعض ذلك: إنه كان لي خليل من بني عذرة (وقص قصة الدوحة، وهي على طولها، وعلى أنها أخذت من الكتاب نحواً من عشر صفحات من أجل قصص الحب في الأدب العربي، وهي مشهورة لم نروها لطولها)

وربما ألث السحاب[1] وجرت الأودية وتتابع السيل، وثلجت الصحراء، حتى يعم ذلك معاقل الأروى، وكناس الظباء، ومرابض المها، ومقاحص القطا، ومسالك الطير من الهواء، فتلجأ الصوار[2] والسرب والعانة والرعيل والرف الى العمارة؛ فتؤخذ قبضاً وتكون حالها في استسلامها، وضعف من يقدر عليها في تلك الصورة كقول علي بن الجهم في وصف غيث:

وحتى رأينا الطير في جنباتها تكاد أكف الغانيات تصيدها

ولا يكون لصيدها ذلك الموقع، على أن ناساً قد أمكنهم مثل ذلك فرأوا تركه، وقالوا إنما لجأت إلينا وعاذت بجوارنا، فنؤمنها ولا نروعها ولا نجور عليها، وفعل مثل ذلك بجير الجراد واسمه حارثة بن حنبل من طيء، وكان الجراد قد وقع في أرضه؛ فبدأ بالوقوع حول خبائه؛ فخرج أهل الحي ليصيدوه؛ فركب فرسه وأشرع إليهم صدر قناته وقال: ما كنت لأمكنكم من جاري

(١) الث والاثات والتثة الالحاح والاقامة ودوام المطر

(٢) الصوار جماعة البقر وجمعه صيران

وفخر بذلك قومه، فقال هلال بن معاوية التغلبي:

ومنا الكريم أبو حنبل أجار من الناس رجل الجراد
وزيد لنا ولنا حاتم غياث الورى في السنين الشداد

وفعل مثله رجل من بني عبد الله بن كلاب يقال له همّام، وبات بأرض خلاء ليس معه أحد؛ فأوقد ناراً، وقد كان صاد صيداً، فلما رأى الذئب النار أتاها، وذلك من شأنه إذا رأى النار، فلما قرب الذئب منه وهو غرثان أقبل يتقرش ما يرميه همّام من العظام ولا يراه، فلما تبينه رمى إليه بقية صيده ولم يرعه، وأنشأ يقول:

يا رب ذئب باسل مقدام منجرد في الليل والاظلام
عاود أكل الشاء والأنعام قد ضافني في الليل ذي الظلام
في ليلة دانية الأرزام يقرش ما ألقى من العظام
فبات في أمني وفي ذمامي مستدفئاً من لهب الضرام
آثرته بالقسم من طعامي ولا يخف نبلي ولا سهامي
ولو أتى غيري من الأقوام من اللئام لا من الكرام
إذن للاقى عاجل الحمام

وأخبرني من وثقت بصدقه عن رجل من جلة أهل همذان أن الثلج كثر في ضياعه حتى لجأت إليها عانات كثيرة؛ فأخذها وكلاؤه ولم يحدثوا فيها حدثاً وكتبوا إليه بخبرها؛ فكتب إليهم أن أقيموا لها قضيا وعلفاً الى أن ينحسر الثلج؛ فاذا انحسر الثلج فخلوا سبيلها واحموها حتى تصل الى أبعد موضع من العمارة ففعلوا ذلك

وتلجأ أيضاً الى الأنس والعمارة إذا أجدبت السنة وعدمت الكلأ، وذكر هذا المعنى ابراهيم الموصلي في قوله يرثي أخاه اسحميل بن جامع المغني، فقال:

وإني واسحميل يوم فراقه لكالنعد يوم الروع فارقه النصل
فان أغش قوماً بعده أوازورهم فكالوحش يدنيها من الأنس المحل
يذكرنيك الخير والشر والتقى وقول الخنا والحلم والعلم والجهل
فألقاك عن مذمومها متنزهاً وألقاك في محمودها وافر الفضل

وقد زعم قوم أن هذا الشعر لمسلم بن الوليد الأنصاري ومثله لآخر:

تخرم الدهر أشكالي فأفردني منهم وكنت أرام خير جلاس

وصرت أصحب قوماً لا أشاكلهم والوحش تأنس عند الحل بالناس

وأخبرني مخبر عن أبي العباس الخ . . عن المعتصم أنه أوغل يوماً في الصيد وحده ، فبصر بقانص يصيد ظباءً فاستدناه وقال : حدثني أعجب ما رأيت في صيدك ، فقال :

خرجت المشارع التي ترِدها الظباء ؛ فلما شممت الخريق صدرت عطاشاً ، ثم عادت من غد فانصرفت أيضاً عطاشاً ، ثم عادت في اليوم الثالث بأجمعها ، فلما جهدها العطش رفعت رؤوسها الى السماء فأتاها الغيث فما انصرفت حتى رويت وخاضت في الماء

وذكرت العلماء بطبائع الحيوان أن الوحش ربما انحازت الى العمران عن مواضعها من الجبال والبر في الفصل الذي يتصل بفصل الشتاء ؛ فيستدل بذلك أهل البلدان على قوة شتاء تلك السنة وشدة برده وثلجه لأنها تحس في الجبال بتغير الهواء وبرد شديد ؛ فتستدل بذلك على ما بعده من قوة البرد وتخاف الهلاك فتلجأ الى العمارة

(باب) من كان مشتهراً بالصيد من الأشراف : اسماعيل ابن ابراهيم الخ . . وحمزة بن عبد المطلب الخ . . ومن خلفاء بني العباس الخ . . الخ . . (وهو باب طويل حافل بالأخبار الممتعة ، والأشعار المستملحة)

(باب) صفة البواشق وذكر ألوانها وشياتها وأوزانها وصفة القاره منها : فالأحمر الأسود الظهر جيد صبور على الكد ، والأحمر الظهر والبطن رخو ما له جلد الخ ...

وأكثر ما رأيناه من أوزانها مائة وثلاثون درهماً ، وأقله خمسة وتسعون الخ ...

(باب) في ضراءة الباشق وفراهته وما يصيد من الطرائد المعجزة التي هي من صيد البازي وذكر علاجات البواشق وعللها وما خلص منها من العلل وأنجب ، وذكر القرنصة وذكر ما عاش عندي منها بالقاهرة حرسها الله ، وذكر ما يحتاج إليه في القرنصة من الخدمة ، وذكر السبب الذي استحقت به التقدمة على البزاة إذ كان مؤلفو الكتب يقدمون البازي على سائر الجوارح

(فصل) صفة ضراءة الباشق وهو وحشي ، يحتاج الباشق إلى أن يكون على يد رقيق من البيازرة يعرف ما يعمل به ، وهو أن يخيط عينه إلى أن يكلب على الطعم ومقدار ذلك سبعة أيام الخ . . . فاذا كلب كلباً تاماً على الطعم فأطعمه وأطعمه الخ . . . فاذا لم يبق عليك من إجابته شيء على ما وصفنا ، فخذ له من طير الماء الفرافير ولقفه إياها الخ ... الخ ...

(فصل) ذكر الضراءة على البيضاني والمكحّل

إذا أردت أن يصيد الباشق البيضاني والمكحل الخ . . . وقد رأيت من فراهة البواشق ما لم أر مثله قط ، فمنها باشق أحمر كبير الخ ... ومن قوة البواشق ثلاثة لم يسمع بمثلها قط الخ ... وكان لنا باشق وحشي الخ . . . ولم أر مثله إلا باشقاً كان لمولانا صلوات الله عليه (يعني العزيز الفاطمي) ، فانه أمرني في بعض الليالي أن أشبعه وشغل هو صلى الله عليه بطير الماء الخ . . . وإنه كان لنا باشق يعرف بباشق ابن حوفية ، وكان يكون على يد أمير المؤمنين صلى الله عليه الخ ... وهذا لم أر مثله إلا من باشق كان الخ ... وقد كان عندي باشق حوام الخ ... الخ

(فصل) صفة علاج القرنصة وذكر ما تحتاج إليه من آلتها

(فصل) ذكر علاج القرح في جناح الباشق وكيف يخرج

(فصل) صفة علاج الدود

(باب) في صفة البزاة وذكر شياتها وألوانها وأوزانها وضراءتها والحوادث التي تحدث لها وعلاجاتها وما تحتاج إليه من الخدمة في قرنصتها

(فصل) صفة شياتها

(فصل) ذكر أوزانها

(فصل) صفة ضراءة البازي : إذا وقع البازي إلى الصياد فسبيله أن يخيط عينيه الخ ...

وقد كان لي باز ، وكان الخ ...

وكان عندنا باز حمل إلينا من دمشق الخ ...

ولقد بلغنا في صيد البازي خبر عجيب ، لم نسمع بمثله ، وذلك أن مسلماً دخل إلى بلد الروم الخ ...

(فصل) ذكر ما يحتاج إليه البازي في القرنصة[1]

(١) قال الشيخ داود الأنطاكي : وأما القرنصة فعبارة عن اراحة الطائر مدة معلومة عن الصيد ؛ وتكون غالباً للبزاة ، ووقتها من دخول ايار

(فصل) ذكر سياسة الدرق

(فصل) ذكر الأدوية والعلاجات وما يستدل به من الدرق[1] على كل علة

(فصل) ذكر ما يحدث الجص وصفة علاجه

(فصل) ذكر علاج النفس

(فصل) ذكر علاج البشم

(فصل) ذكر علاج البياض إذا أصاب عين البازى

(فصل) ذكر ما يولد القمل فى البازى وصفة علاجه

(فصل) ذكر علاج المسمار إذا أصاب كف الجارح

(فصل) ذكر ما يحدث الورم فى الكفين وصفة علاجه

(فصل) ذكر علاج القلاع

(فصل) ذكر ما يتبين به كون الدود فى البازى وصفة علاجه

(فصل) صفة علاج الحر

(فصل) صفة علاج مخاليب الجارح إذا تقلعت

(فصل) صفة علاج البرد

(فصل) صفة علاج اعوجاج ريش الجناح

(فصل) صفة علاج العقر إذا أصاب كف البازى

(فصل) ذكر ما يحدث السدة فى المنخرين وصفة علاجهما

(باب) فى تفضيل الصقور على الشواهين لما فيها من الفراهة وهو السبب الموجب لتقديمها وذكر ألوانها وأوزانها وصفة ضراستها ، (وفيه فصول طويلة كالذى مرّ فى باب البواشق وباب البزاة)

(باب) فى صفة الشواهين وذكر ألوانها وأوزانها وصفة ضراستها

(باب) السقاوات وذكر ألوانها وأوزانها وضراستها ، وما تصيده من الوبر والريش ، وذكر ما يستدل به على جيدها ورديئها

(باب) العقبان الخ . . .

(باب) الزمامجة الخ . . .

(ذكر) ما قيل فى العقاب من الشعر المستحسن

(باب) صيد الفهد الخ . . .

(ذكر) الصيد بالفهد وما يستحسن منه الخ . . . وقال بعض الشعراء الخ . . . (وفى هذا الفصل كثير من الأشعار والأخبار الجيدة)

(ذكر) ما قيل فى ابتذال الملك نفسه فى الصيد بهذا الضارى ومباشرته له الخ . . . (وفى هذا الفصل أشعار كثيرة)

(باب) فى صفة الظباء وذكر مواضعها التى تأويها وصيدها وما فيها من المنافع ، وما قيل فى ذلك من الشعر

(باب) فى ذكر كلاب سلوق وخصائصها وصيدها وعللها ودوائها ، وما قيل فيها من الشعر (وفيه فصول وقد أورد المؤلف فى بعضها طائفة صالحة من الشعر)

(باب) ذكر ما قيل فى الجوارح وما وصفت به من الشعر المستحسن لتقدم ومتأخر ، (وفيه فصول)

(باب) صيد طير الماء فى القمر بالبازى والباشق ، وهو باب تفردنا به دون غيرنا ولم نعلم أحداً سبقنا اليه من مؤلفى كتب البيزرة من المتقدمين (وهو آخر أبواب الكتاب) ثم تأتى الزيادات التى أشرنا اليها فى صدر مقالنا السابق

* * *

هذا وصف موجز ، وبيان لقيمة هذا الكتاب الجليل ، وإنا لنرجو أن يهيىء الله له ناشراً ، يسرع إلى طبعه ليستفيد منه أهل الأدب ، وأصحاب هذه الصناعة ، ويأخذ مكانه فى المكتبة العربية ، فان مكانه لا يزال خالياً ، ولا يسده اليوم فى الدنيا كتاب غيره ، وإنا لنرجو أن تعنى بأمره « لجنة التأليف والترجمة والنشر » ويكون لها فى نشره مأثرة جديدة ، تضم إلى مآثرها الجمة وأياديها الكثيرة على الثقافة والأدب ؟

على الطنطاوى

(١) الدرق للطائر كالزرق وزناً ومعنى ، وهو بمنزلة البول من الانسان

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٥٠ قرشاً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثانية (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد عن كل مجلد للخارج ١٥ قرشاً